



هل نحتاج إعادة ضبط برمجتنا؟

منقذ داغر 19-07-2022 -

ان طريقة التفكير التي يتبناها شعب أو مجموعة ما هي أحد أهم مكونات الثقافة الاجتماعية لأنها تشكل البرنامج الحاسوبي software لعقل المجموعة. فطريقة تفكير أي شعب هي التي توجه سلوكه الاجتماعي.

أن المجتمعات ذات الثقافة الاجتماعية الصلبة، وغير المرنة كالعراق يتم برمجتها تاريخياً ليصبح هدفها الأسمى هو المحافظة على المعايير الاجتماعية وعدم خرقها. وبتداول الزمن وكثرة التكرار ينسى المجتمع لماذا وضعت هذه المعايير أساساً ويحل المعيار محل الهدف الذي وضع من أجله. أن ظاهرة نسيان الهدف والتركيز على الوسيلة ظاهرة بشرية معروفة بل وهي موجودة أيضاً في المجتمعات الحيوانية كتجربة القروء الخمسة الذين بتداول الزمن والتكرار نسوا أن أسلافهم توقفوا عن محاولة جلب الموز لأن الماء البارد ان يسكب عليهم عندما يحاولون ذلك وليس لأن الموز فيه مشكلة! لقد حافظوا على معيار عدم جلب الموز حتى بعد ان زال خطر سكب الماء البارد الذي أجبرهم على وضع معيار معاقبة كل من يحاول جلب الموز.

طريقة التفكير

ان طريقة التفكير هذه تتأثر بالتاريخ الذي نشأت ونمت فيه تماماً مثل برمجيات الحاسوب التي تكتب بطريقة تستجيب للهدف الذي أنشأت من أجله، ثم طُورت بناء على تفاعلها مع محيطها الذي نشأت فيه. فطريقة التفكير لا تنشأ في فراغ وإنما في محيط بيئي ضمن سياق تاريخي معين. وهنا تكمن معضلتنا الكبرى، وهي ماهية السياق التاريخي الذي تشكلت فيه طريقة التفكير العراقية.

مشكلتنا كما يبدو أن طريقة التفكير تجاه ثقافتنا نشأت في حقبة زمنية معينة طبقاً لذلك الظرف الذي نشأت به. لكننا لم نغادر طريقة التفكير تلك و متمسكين بها كمرجعية ثقافية كبلتنا بقيودها. أن هناك تشوش مفاهيمي واضح بخصوص نشوء وتطور الثقافة العربية، ومنها العراقية. هل نحن أبناء ثقافة سومر، وبابل وآشور وكل الحضارات التي وُلدت على ما بات يعرف اليوم بالعراق، أم نحن أبناء الثقافة الجاهلية التي سبقت الاسلام كما يرجح ذلك الجابري؟

هل صحيح أن ثقافتنا بدوية (كما قال الوردي رحمه الله وأيده كثر باعتبار أن معظم من يسكن العراق اليوم من عرب جاؤوا من جزيرة العرب، أم نحن ورثة ثقافة العراقيين (البصرة والكوفة) أم الحضارة العباسية بكل تاريخها؟ هل الثقافة الاجتماعية التي نعيش في ظلها ونفكر بأسلوبها هي نتاج القرون الاربعة التي أعقبت سقوط العباسيين، كما يشير لذلك د سيار الجميل، أم انها ثقافة تأثرت بالتحويلات الاجتماعية والسياسية



والاقتصادية الكبرى أبان العهد الملكي والجمهوري الاول كما عرضها د بطاطو في موسوعته الاجتماعية“
العراق“؟

هل تأثرت شخصية الثقافة العراقية بآثار حكم البعث وجمهورية الخوف كما وصفها كنعان مكية، أم أن كل ذلك ليس مهماً ولا يشكل أثراً كبيراً في الثقافة الاجتماعية السائدة التي تأثرت بشكل رئيس بالغزو الأمريكي واحتلال العراق كما يعتقد د الحيدري، وفارس نظمي؟ قد يكون العراق استثناء نادراً في التاريخ الإنساني بسبب ثراءه التاريخي الذي يبدو أنه تحول الى نقمة مماثلة لنقمة ثراءه المادي. فأرض العراق تكاد تكون الأرض الوحيدة في العالم التي نشأ وترعرع فيها هذا الكم الكبير من الحضارات سواءً تلك التي سبقت ميلاد السيد المسيح أو أعقبته.

لقد ازدهرت ثقافات النيل والفرس والصين والهند والاغريق والاندلس في حقب تاريخية معينة خبت بعدها. أما في العراق فعلى مدار آلاف السنين التي سبقت الميلاد كانت هناك حضارة أو أكثر (وبالتالي ثقافة أو أكثر) تنشط على ثرى العراق، الذي تمتد جذوره عميقاً في التاريخ وامتدت أغصان شجرته عبر أزمان وحقب طويلة كانت في بعضها خضرة مزهرة، وفي كثير من الأحيان يابسةً مجدبة. فكيف يمكن أن نعامل كل ذلك التاريخ بذات الكيفية؟

ملاحظة: كنت أعتقد أنني سأنتهي المقال في هذه الحلقة لكن تبدو هناك حاجة لحلقة قادمة للخاتمة.

* الآراء الواردة في المقال لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبا المعلوماتية.